العطـر

جلـس وحـيداً يفكر، ماذا حدث ؟ لماذا تغيرت الحياة التي تركها وسافر، كان حبه حقيقة رائعة، لماذا تتبدل الحقائق ؟، منذ عاد لم يعد يشـعر بها، لم تعد قريبة منه، ذبلت، ابتعدت، تساءل: هل أرهقتها غربتي إلى هذا الحد ؟

ما زال يفكر، الوقت لا يمر، كانا معاً قبل الزواج، يدها في يده، كانـت الحياة تحمل رائحة العطر، لا مكان للكرامة والخصام بين قلبين جمعهما الحب، لم تكن تطيق فراقه لحظة واحدة، كانت تردد له دوماً: رائحة عطرك لا تغادر يدي أبداً.

كـان يضـع العطـر مـن أجلها، يشتريه بنقوده القليلة حتى تحمله معها إلى بيتها، فلا تنساه سريعاً، كان العطر يحل محله عند الفراق.

بعـد الـزواج تتـبدل الأحـوال وتلمـع الكـرامة في الأفـق ويطول الخصام، وتصبح الأشياء الحلوة ماسخة، حاول جاهداً أن يصلح بينها وبين أمه، فالبيت الضيق يضمهما معاً، كل واحدة لا تطيق الأخرى، تشـعر إنها تأخذ مساحة لا تستحقها، أمه تتهمه دوماً بسوء الاختيار،

وزوجته تتهمه بأنه ابن أمه، كان يضحك أحياناً وهو يقول لزوجته: نعم أنا ابن أمي.. صدقيني شهادة ميلادي تحمل اسمها.

كان فقيراً متواضعاً ولكنه يحمل قلباً غنياً بالحب، كان يحب زوجته، ولماذا لا يحبها وهي فاتنة، حلوة الملامح، ملفوفة القوام، لم يشعر يوماً إنها لا تليق به.

كانت أمه دائماً ثائرة عليه، ثورة لا حد لمفرداتها، أما الزوجة فكانت ـ كلما ضاقت بها الدنيا ـ تهدد صارخة: طلقني.. ، لم يكن ليفعل أبداً، إنه عاشق لها، ولكن أمه لا ترى هذا العشق ولا تصدقه، ولا تهدأ الثورة ولا يحدث الطلاق.

كان يشعر أنه يريد أن يعوضها عن الفقر والحرمان، أن يمتلك الأموال التي تمسح العيوب وتبدلها مزايا رائعة، قرر أن يسافر، يعود لها مُحملاً بالهدايا، بكل ما تتمنى، أحلامه محدودة تناسب طبعه وأحواله.

في الغربة سيجني الأموال، سيملأ دولابها الفارغ بالملابس، ويدها بالأساور الذهبية، ويضيف إلى أذنيها قرطاً رائعاً يمنحها جمالاً فوق جمالها، كل شيء سيتغير، ستعود رائحة العطر.

أمه رفضت السفر، اتهمته أنه يبيع عمره ويخسر أيامه، لم

يستمع، سافر، ماتت أمه حزناً على فراقه، قربه كان يمنحها الحياة، حل السكون برحيل الزوج والأم، بقيت هي تعاني الوحدة التي طالت كثيراً.

الغربة كانت قاسية، شعر أن حياته تتسرب من بين يديه، وأن ما يحصل عليه لا يوازي آلام الوحدة، كانت صورتها لا تغادره وهو يقضي الليل وحيداً، كان ليل الغربة طويلاً مرهقاً، ولكن أحلامه كانت تنتصر فيبقى عاماً آخر في هذا الليل الطويل الموحش.

بعد خمسة أعوام متصلة قرر العودة، فالاشتياق أصبح أكبر من احتماله، أكبر من قرار البقاء، انتصر قلبه على أموال الغربة، عاد مُحملاً بالهدايا.

عاد لها ولكنها لم تكن هي، كل شيء مازال كما هو؛ البيت، الشارع، الجيران، ولكنها تبدلت، جفت المشاعر والأحاسيس التي كانت تغذيها، ذبلت كأوراق الشجر.

بدأ يتأملها أمامه، اخترقها، يريد أن يعرف سر الذبول؟ فلقد اتسعت المسافة بينهما، أصبح للصمت مساحة لا تطاق، كان قلبه يؤكد له دوماً إنها تحبه، أمسك يدها، قَبَّلها: ماذا حدث؟ ما زالت يدك تحمل رائحة عطري.

وكأنها كانت في انتظار: أي عطر.. سنواتي السابقة كانت بلا عطر.. أنهكتني الغربة..

بقيت هنا وحيدة بلا زوج ولا طفل ولا مال.. كنت أشتاق إليك.. بل كنت أشتاق لثورة أمك.. ولكن لا صوت.. حل الجفاف.. سكنني البؤس.. كل شيء ثابت إلا أنا.. الليل طويل وطول الليالي يجعل الخوف يسكننا.. عندما هجر الحب قلبي سكنني الخوف.. تمكن مني.. حاصرني.. واجهت الكثير وحدي.. لم تكن معي.. لم تعد تشاركني متاعبي.. تعلمت أن أحيا بدونك بعد أن كنت لا أطيق فراقك.. كنت أشتاق إلى الكلام.. أفتقد صوتي ودلالي.. تعلمت الوحدة، فعلمتني أن أصادق الخوف.. كنت أريد الذهب والقرط والملابس، ولكن هذه الرغبة تبدلت.. قبل سفرك كنت أنا من يبدأ الكلام.. أنا من يبدد مخاوفك.

الآن كلانا صامت.. كلانا يحتاج لمن يبدد صمته.

دخلت غرفتهم، عادت تحمل الملابس والذهب، نزعت القرط عن أذنيها، وضعت كل شيء أمامه: خذهم.. لقد سلبوا قلبي.. أضاعوا أيامي.. كانوا السبب في غربتي ووحدتي وجفافي.

- إلى أين؟

ـ لم يعد لي مكان هنا .

أمسك بيدها : سأبدأ أنا . . سافرت حتى أعوضك الحرمان . . فجلبت لك حرماناً أكبر . .

لم أدرك أن كلينا عاش الغربة وتألم من قسوتها . . ولكننا عدنا . . امنحيني فرصة ، فما زالت يداي تحملان عطراً . . ما زال هناك ما أمنحه .